الرسالةُ الثانيةُ والعشرون

أبو العبَّاسِ بنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ وكتابُهُ «الصَّفَديَّة» (١)

(١) أصلُها: مقدِّمةُ كتابِ «الرسالةِ الصَّفَديَّةِ» لأبي العبَّاسِ بنِ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ بتحقيقِ أبي عبد الله سيِّد بن عبَّاس الجُلَيمي، وأبي معاذ أيمن بن عارف الدِّمَشْقي.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ وحدَهْ، والصلاةُ والسلامُ على مَن لا نبيَّ بعدَهْ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ الإمامَ أبا العبَّاسِ بنَ تيميَّةَ مِن أئمَّةِ الدِّينْ، ومِن كبارِ علماءِ المسلِمينْ، ومِن المجاهِدينَ في نُصْرةِ الإسلامِ بيدِهِ ولسانِهِ وقَلَمِه، وسِيرتُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مشهورةٌ، وقد كتَبَ غيرُ واحدٍ في ترجمتِهِ وبيانِ سِيرتِه.

وقد ألَّفَ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مؤلَّفاتٍ كثيرةً، أغلبُها في بيانِ السُّنَّةِ النبويَّهْ، والطريقةِ المحمَّديَّهْ، ومنهجِ السلفِ الصالحِ والذبِّ عن المِلَّةِ الحنيفيَّهْ، ونُصْرةِ الشريعةِ والردِّ على المخالِفينْ، مِن أهلِ الكتابِ والملحِدينْ، والفلاسفةِ والمتكلِّمينْ، والصوفيَّةِ الخُرافيِّينْ، والرافضةِ الباطنيِّينْ، وغيرِهِم مِن المنحرِفِينْ.

وقد بيَّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ لماذا أكثَرَ مِن التأليفِ في ذلك؛ قال أبو حفصٍ عمرُ بنُ عليٍّ البزَّارُ في كتابِهِ: «الأعلامِ العَلِيَّة» (ص٣٣ ـ ٣٥): «ولقد أكثرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ التصنيفَ في الأصولِ ـ فضلًا عن غيرِهِ مِن بقيَّةِ العلومِ ـ فسأَلْتُهُ عن سببِ ذلك، والتَمَسْتُ منه تأليفَ نصٍّ في الفقهِ يَجمَعُ اختياراتِهِ وترجيحاتِهِ؛ ليكونَ عمدةً في الإفتاءِ، فقال لي ما معناه:

الفروعُ: أمرُها قريبٌ، فإذا قلَّد المسلِمُ فيها أحدَ العلماءِ المقلَّدِينَ، جاز له العملُ بقولِه؛ ما لم يتيقَّنْ خطأَه.

وأمَّا الأصولُ: فإنِّي رأيتُ أهلَ البِدَعِ والضلالاتِ والأهواءِ؛ كالمتفلسِفةِ، والباطنيَّةِ، والملاحِدةِ، والقائلينَ بوَحْدةِ الوجودِ، والدَّهْريَّةِ، والقدَريَّةِ، والنُّصَيريَّةِ، والجَهْميَّةِ، والحُلُوليَّةِ، والمعطِّلةِ، والمجسِّمةِ، والمشبِّهةِ،

والراوَنْديَّةِ، والكُلَّابيَّةِ، والسليميَّةِ[(١)]، وغيرِهم مِن أهلِ البِدَعِ، قد تجاذَبوا فيها بأَزِمَّةِ الضلالِ، وبان لي أنَّ كثيرًا منهم إنَّما قصَدَ إبطالَ الشريعةِ المقدَّسةِ المحمَّديَّةِ، الظاهرةِ العَلِيَّةِ على كلِّ دينٍ، وأنَّ جمهورَهم أوقَعَ الناسَ في التشكيكِ في أصولِ دِينِهم.

ولهذا قلَّ أن سَمِعتُ أو رأيتُ مُعرِضًا عن الكتابِ والسُّنَّةِ، مُقبلًا على مَقُولاتِهم، إلا وقد تزندَقَ، أو صار على غيرِ يقينٍ في دِينِهِ واعتقادِه.

فلمَّا رأيتُ الأمرَ على ذلك، بان لي أنَّه يَجِبُ على كلِّ مَن يَقدِرُ على دفعِ شُبَهِهم وأباطيلِهم، وقطعِ حُجَّتِهم وأضاليلِهم، أن يبذُلَ جهدَهُ ليَكشِفَ رذائلَهم، ويزيِّفَ دلائلَهم؛ ذَبًّا عن المِلَّةِ الحنيفيَّهْ، والسُّنَّةِ الصحيحةِ الجَلِيَّهْ.

ولا واللهِ، ما رأيتُ فيهم أحدًا ممَّن صنَّف في هذا الشأنِ وادَّعى عُلُوَّ المقامْ، إلا وقد ساعَدَ بمضمونِ كلامِهِ في هدمِ قواعدِ دينِ الإسلامْ.

وسببُ ذلك: إعراضُهُ عن الحقِّ الواضحِ المُبينْ، وعمَّا جاءت به الرسلُ الكرامُ عن ربِّ العالمينْ، واتِّباعُهُ طُرُقَ الفلسفةِ في الاصطلاحاتِ التي سمَّوْها بزعمِهِم: حُكْميَّاتٍ وعَقْليَّاتْ، وإنَّما هي جهالاتٌ وضلالاتْ، وكونُهُ التزَمَها مُعرِضًا عن غيرِها أصلًا ورأسًا، فغلَبَتْ عليه حتى غطَّتْ على عقلِهِ السليم، فتخبَّطَ فيها خَبْطَ عَشْواءَ، ولم يفرِّقْ بين الحقِّ والباطلِ؛ وإلا فاللهُ أعظمُ لطفًا بعبادِهِ ألَّا يَجعَلَ لهم عقلًا يَقبَلُ الحقَّ ويُثبِتُه، ويُبطِلُ الباطلَ ويَنفيه، لكنَّ عدمَ التوفيقِ وغلَبَةَ الهوى أوقَعَ مَن أوقَعَ في الضلال.

وقد جعَلَ اللهُ تعالى العقلَ السليمَ مِن الشوائبِ ميزانًا يَزِنُ به العبدُ الوارِداتِ؛ فيفرِّقُ به بين ما هو مِن قَبِيلِ الحقِّ، وما هو مِن قَبِيلِ الباطلِ، ولم يَبعَثِ اللهُ الرسلَ إلا إلى ذوي العقلِ، ولم يقَعِ التكليفُ إلا مع وجودِهِ؛ فكيف يقالُ: «إنَّه مخالِفٌ لبعضِ ما جاءت به الرسلُ الكرامُ عن اللهِ تعالى»؟!

---

(١) كذا، ولعلَّ الصوابَ: «السالِمِيَّةُ»؛ وهم أتباعُ أبي الحسَنِ بنِ سالم، صاحبِ التُّسْتَريِّ. ينظر: «مجموع الفتاوى» (٥/ ٤٨٣).

هذا باطلٌ قطعًا؛ يَشهَدُ له كلُّ عقلٍ سليمٍ، لكنْ: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠].

فهذا ونحوُهُ هو الذي أوجَبَ أنِّي صرفْتُ جُلَّ همِّي إلى الأصولِ، وألزَمني أن أورَدتُّ مقالاتِهم، وأجَبْتُ عنها بما أنعَمَ اللهُ تعالى به مِن الأجوبةِ النقليَّةِ والعقليَّةِ...».اهـ.

قلتُ: الأصولُ كاسمِها أصولٌ، ومَن ترَكَها حُرِمَ الوصولْ؛ ولذا يَجِبُ على كلِّ مسلمٍ أن يهتمَّ بها غايةَ الاهتمام.

قال تعالى مذكِّرًا نبيَّهُ ﷺ بالأصلِ الذي بعثَهُ مِن أجلِهِ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمَّد: ١٩]، وهذه الآيةُ الكريمةُ نزلَتْ بعد البَعْثةِ بمدَّةٍ طويلةٍ؛ لأنَّها في سورةٍ مَدَنيَّةٍ، وهي سورةُ محمَّدٍ، فمع كونِهِ مبعوثًا بهذه الكلمةِ، وبقِيَ مدَّةً طويلةً وهو يدعو الناسَ إليها، ويجاهِدُ مِن أجلِها، وهاجَرَ ﷺ مِن بلدِهِ لتحقيقِها.

ومع ذلك: فإنَّ اللهَ تعالى يذكِّرُهُ بهذا الأصلِ العظيمِ الذي هو أساسُ دِينِ الإسلامِ؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٥ ـ ٦٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

وفي هذه الآياتِ تذكيرٌ للرسولِ ﷺ بالأصولِ التي بُعِثَ مِن أجلِها.

ومِن اهتمامِ إبراهيمَ الخليلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بالأصلِ الذي خُلِقَ مِن أجلِهِ وبُعِثَ بسببِهِ: خوفُهُ أن يقَعَ فيما ينافيه؛ فقال كما ذكَرَ اللهُ تعالى عنه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥ ـ ٣٦].

قال أبو جعفر بنُ جَريرٍ في «تفسيرِه» (١٣/ ٦٨٧ ـ ٦٨٨): «ومعنى ذلك: أَبعِدْني وبَنِيَّ مِن عبادةِ الأصنام...».

حدَّثَنا ابنُ حُميدٍ، ثنا جَرِيرٌ، عن مُغِيرةَ؛ قال: كان إبراهيمُ التَّيْميُّ يقُصُّ ويقولُ في قَصَصِهِ: مَن يأمَنُ مِن البلاءِ بعد خليلِ اللهِ إبراهيمَ؛ حينَ يقولُ: ربِّ ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾؟!

وقولُهُ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ يقولُ: يا ربِّ، إنَّ الأصنامَ أَضلَلْنَ؛ يقولُ: أزلْنَ كثيرًا مِن الناسِ عن طريقِ الهدى، وسبيلِ الحقِّ؛ حتَّى عبَدُوهُنَّ، وكفَروا بك». اهـ.

وإبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الذي كسَّر الأصنامَ بيدِه، وهو الذي أراد أن يَذبحَ ابنَهُ طاعةً لربِّهِ تعالى، إلى غيرِ ذلك مِن المقاماتِ العظيمةِ التي قامَها تحقيقًا للتوحيدِ، وقيامًا بواجبِ العبوديَّةِ للربِّ عَزَّ وَجَلَّ، ومع ذلك كلِّهِ دعا ربَّه عَزَّ وَجَلَّ أن يجنِّبَهُ وبنيه عبادةَ الأصنام.

وقد أرسَلَ اللهُ تعالى جبريلَ للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لكي يَسأَلَهُ عن أصولِ الدِّينِ وأركانِهِ وقواعدِهِ؛ حتى يتعلَّمَ الناسُ ذلك؛ أخرجَ البخاريُّ (٥٠)، ومسلم (٩)؛ مِن طريقِ أبي حيَّانَ، عن أبي زُرْعةَ، عن أبي هُرَيرةَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يومًا بارزًا للناسِ؛ إذْ أتاه رجلٌ يمشي، فقال: يا رسولَ اللهِ، ما الإيمانُ؟ قال: «**الإِيمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ باللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَلِقَائِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالبَعْثِ الآخِرِ**»، قال: يا رسولَ اللهِ، ما الإسلامُ؟ قال: «**الإِسْلَامُ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ**»، قال: يا رسولَ اللهِ، ما الإحسانُ؟ قال: «**الإِحْسَانُ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»، قال: يا رسولَ اللهِ، متى الساعةُ؟ قال: «**مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَلَكِنْ سَأُحَدِّثُكَ عن أَشْرَاطِهَا: إِذَا وَلَدَتِ المَرْأَةُ رَبَّتَهَا، فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَإِذَا كَانَ الحُفَاةُ العُرَاةُ رُؤُوسَ النَّاسِ، فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤]، ثمَّ انصرفَ الرجلُ، فقال: «**رُدُّوا عَلَيَّ**»، فأخَذُوا لِيَرُدُّوا، فلم يَرَوْا شيئًا، فقال: «**هَذَا جِبْرِيلُ، جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ**».

وفي روايةٍ عند مسلمٍ (١٠)؛ مِن طريقِ عُمَارةَ بنِ القَعْقاعِ، عن أبي

زُرْعةَ، عن أبي هُريرةَ؛ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**سَلُونِي**»، فهابُوهُ أن يسألوه، فجاء رجلٌ، فجلَسَ عند رُكْبتَيْهِ، فقال: يا رسولَ اللهِ، ما الإسلامُ؟ قال: «**لَا تُشْرِكُ باللهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ**»... وفي أُخراها: فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**هَذَا جِبْرِيلُ، أَرَادَ أَنْ تَعَلَّمُوا إِذْ لَمْ تَسْأَلُوا**».

وقد جاء هذا الحديثُ أيضًا مِن روايةِ عمرَ بنِ الخطَّابِ وغيرِهِ مِن الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وهذه القصَّةُ وقَعتْ بالمدينةِ؛ بل جاء في روايةٍ عن عمرَ[(١)] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أخرجها أبو عبدِ اللهِ بنُ مَنْدَهْ في «الإيمان» (١١ و١٢)؛ أنَّ هذه القصَّةَ وقَعَتْ في آخِرِ عُمُرِ الرسولِ ﷺ.

ومع طولِ هذه المُدَّةِ ما بين بَعْثتِهِ ﷺ وما بين وقوعِ هذه القصَّةِ، مع أنَّه ﷺ لم يزَلْ منذ بُعِثَ وهو يبيِّنُ الإسلامَ والإيمانَ، ومع ذلك جاء السؤالُ عن هذه الأصولِ في آخِرِ حياتِهِ؛ تذكيرًا للأمَّةِ بأهمِّيَّةِ هذه الأصولِ، ووجوبِ معرِفتِها والعملِ بها.

قال عِياضُ بنُ موسى رَحِمَهُ اللَّهُ: «اشتمَلَ هذا الحديثُ على جميعِ وظائفِ العباداتِ الظاهرةِ والباطنةِ؛ مِن عقودِ الإيمانِ ابتداءً وحالًا ومآلًا، ومِن أعمالِ الجوارحِ، ومِن إخلاصِ السرائرِ، والتحفُّظِ مِن آفاتِ الأعمالِ؛ حتى إنَّ علومَ الشريعةِ كلَّها راجعةٌ إليه، ومتشعِّبةٌ منه»[(٢)].

وقال القُرْطُبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيصلُحُ في هذا الحديثِ أن يقالَ فيه: إنَّه أُمُّ السُّنَّةِ؛ لِمَا تضمَّنه مِن جُمَلِ عِلْمِ السُّنَّة»[(٣)].

والأدلَّةُ في هذا المعنى كثيرةٌ، وما بَقِيَ إلا العمَلُ وتدبُّرُ كتابِ اللهِ تعالى وسُنَّةِ رسولِهِ ﷺ، ثم ما جاء عن المهاجِرينَ والأنصارِ، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ مِن أهلِ العلمِ والفضلِ؛ فقد أكثَرُوا مِن التأليفِ في هذا المعنى، وتَجلِيَةِ هذا

---

(١) صحَّح ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في «فتح الباري» (١/ ١١٩) هذه الروايةَ على شرطِ مسلمٍ؛ وفي هذا بعضُ النظَر، والله أعلم.

(٢) «إكمال المُعلِم» (١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥).

(٣) «المفهم» (١/ ١٥٢).

الأمرِ؛ ولهذا يُستحسَنُ لطالبِ العلمِ أن يُكثِرَ النظرَ في «مجموعِ فتاوى الإمامِ ابنِ تيميَّةَ»، و«الدُّرَرِ السَّنيَّةِ»؛ فهي عظيمةُ النفعِ في هذا البابِ، وبخاصَّةٍ المجلَّداتُ الأولى مِن هذَيْنِ الكتابَيْن.

وهذا الكتابُ ـ وهو: «الصَّفَدِيَّةُ» ـ بيَّن فيه أبو العبَّاسِ بنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأصولَ الصحيحةَ التي جاءت في الكتابِ والسُّنَّةِ، ورَدَّ فيه على الفلاسفةِ وغيرِهِم مِن المنحرِفين.

وكتب

عبد الله بن عبد الرحمٰن آل سعد

١٤٢٣/١/٤هـ